الملهاة الفلسطينية"زمن الخيول البيضاء"ملحمة النكبة

بقلم:**جميل السلحوت**

صدرت في اكتوبر ٢٠٠٧ رواية :"زمن الخيول البيضاء" للأديب إبراهيم نصر الله عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت ، تقع الرواية التي صمم غلافها ورسوماتها الداخلية الفنان التشكيلي البحريني أحمد باقر في ٥١٠ صفحات من الحجم المتوسط.

ومن الواضح لمن قرأ وتابع الأعمال الأدبية للمبدع إبراهيم نصر الله سيجد أنّه دائم التجديد في هذه الأعمال . وقد بلغ من الشهرة ما بلغ قبل هذه الرواية التي نحن بصددها، فجاءت هذه الرواية الملحمية لتجعل منه نجم نجوم من كتب عن نكبة الشعب الفلسطيني، وحسب معلوماتي المتواضعة فإن روايته المحلمية لم تكن مسبوقة بأيّ عمل روائي يضاهيها، كما أنّها غير متبوعة بما يضاهيها حتى الآن على الأقل، فلقد قرأنا قبلها رواية "بير الشوم" لفيصل حوراني ورواية "باب الشمس" للروائي اللبناني الشهير الياس خوري، وقرأنا بعدها – بعد زمن الخيول البيضاء – رواية " الصعود الى المئذنة " للروائي المبدع احمد حرب التي هي عن فترة ما بين ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ورواية " ماء السماء " للروائي المبدع يحيى يخلف ، ومع كل الإبداع الذي جاء في الروايات الثلاث إلّا أنّ "زمن الخيول البيضاء" جاءت ملحمة روائية بكل المقاييس، غطّت مراحل ما قبل النكبة، بفنية عالية، وهذا **بالطبع لا ينتقص من القيمة الإبداعية للروايات التي ذكرناها.**

الملهاة الفلسطينية:

يطرح الكاتب عدة ملاحظات بما يشبه المقدمة لروايته، يذكر فيها أنّه بدأ مشروعه الروائي هذا في العام ١٩٨٥ "بدأت العمل عليها إعدادا وتسجيل شهادات وتكوين مكتبة خاصة بها، ولكن أفضل ما يحدث أنّ الأمور لا تسير حسب رغباتنا، إذ أصبح العمل الطويل عليها هو الباب الذي سندخل منه خمس روايات ضمن هذا المشروع، وبهذا فإن الرواية التي كان من المتوقع أن تكون الأولى أصبحت الأخيرة ص٥" ورواياته الخمس التي سبقت " زمن الخيول البيضاء "هي : "طفل الممحاة" و "طيور الحذر " و "زيتون الشوراع" و "أعراس آمنة " و "تحت شمس الضحى"

وأديبنا الذي لم يعش فترة النكبة، فهو من مواليد عام ١٩٥٤في مخيم الوحدات في الأردن، استمع الى شهادات بعض من عاشوا النكبة "شهود من أربع قرى فلسطينة حملوا الحلم ذاته، وماتوا الميتة ذاتها غرباء، هذه الرواية أهديها الى أرواحهم "

عمّي – جمعة خليل، جمعة صلاح، مرثا خضر، كوكب ياسين طوطح. هذه الرواية تحية إليهم، وتحية لعشرات الشهود الذين لم يتوانوا عن تقديم خلاصات ذكرياتهم، أو استمعت الى بعض حكاياتهم، مصادفة على مدى عشرين عاما" ص ٥

وهو يهديها أيضا "للكتاب الفلسطينيين والعرب الذين ساهمت مذكراتهم وكتبهم في إضاءة الطريق لي، وقد جرى تثبيت أسماء أعمالهم في نهاية الرواية"ص٥

وهكذا فإن أديبنا مهّد الطريق للرواية من خلال ما دونه من أفواه من عاشوا المرحلة، ومن خلال عشرات الكتب التاريخية والأدبية التي كتبت عن تلك المرحلة.

والسؤال يعود مرة أخرى حول الملهاة، فالقول المأثور بأن" التاريخ يعيد نفسه مرّتين، مرّة على شكل مأساة ومرّة على شكل ملهاة". فلماذا أسقط الكاتب

المأساة، وقبض على جمرة الملهاة؟ وقد ثبّت لنا الكاتب في ص٥٠٩ في آخر الرواية" الملهاة وجذورها" كما جاءت في معجم لسان العرب، وكأنّي به يهرب من المأساة بما تحمله من تراجيديا تنتهي بموت البطل، الى الملهاة التي يريد أن لا تنتهي قبل أن يعود الحق الى أصحابه، فمما جاء في لسان العرب أنّ "الإنسان اللاهي الى الشيء: الذي لا يفارقه وقال: لاهى الشيء أي داناه وقاربه. ولاهى الغلام الفطام إذا دنا منه . قال تعالى : "لاهية قلوبهم" أي متشاغلة عمّا يدعون إليه. وقال "وأنت تلهى"أي تتشاغل.

وواضح هنا أن الكاتب يريد تكريس "الملهاة"ويريد أن يبقى الفلسطينيون والعرب متمسكين بالملهاة الفلسطينية إلى أن يعود الحق الفلسطيني، وقد تكرر في الرواية أكثر من مرّة ما جاء على لسان خالد الحاج محمود "أنا لا أقاتل كي أنتصر بل كي لا يضيع حقي ".

وعودة مرّة أخرى إلى زمن الخيول البيضاء فالأديب المؤلف يقسم روايته إلى ثلاثة أبواب أسمى كل باب منها كتابا وهي: الكتاب الأوّل: الريح، الكتاب الثاني: التراب، والكتاب الثالث البشر. والكتاب الأوّل يتحدث عن أحوال البشر في أواخر العهد العثماني، ويتحدث الثاني عن فترة الانتداب البريطاني، والثالث عن الغزو الصهيوني لفلسطين، وهكذا فإن زمن الرواية يمتد لأكثر من سبعة عقود.

ويلاحظ أنّ عودة أديبنا إلى زمن أواخر العهد العثماني لم يكن عبثا، ولم يكن من باب إطالة الرواية، بل هو ضرورة تمليها ضرورة فهم النتائج المأساوية التي أوصلت إلى النكبة، فالنتائج دائما هي محصلة المقدمات والأسباب.

فالمظالم التي عاشتها فلسطين، وعاشها شعبها العربي الفلسطين على أيدي الأتراك العثمانيين، مثلهم مثل بقية أجزاء العالم العربي والإسلامي الذي كانت تتشكل منه الولايات العثمانية ،أهلكت البلاد والعباد، فقد انتشر الفساد، وسادت المظالم، ولم يكن يهمّ الامبراطورية المريضة سوى جمع الضرائب بشتى السبل،

لتمويل حروبها في مناطق مختلفة، غير عابئة بأوضاع السكان وسبل معيشتهم، وأوكلت إلى بعض أعوانها المحليين هذه المهمة، وهؤلاء تعدّوا الحدود بشكل لا يقبله منطق ولا عقل، لا يشغلهم سوى خدمة أسيادهم، والإثراء الفاحش على حساب قوت الناس، كما كانت تفرض التجنيد الإجباري على الشباب، وتقودهم إلى حروب خاسرة وغالبيتهم لم يعودوا منها، إضافة إلى إعدام كلّ من كان يُشك في ولائه، وكلّ هذه الأمور هي التي مهّدت الطريق أمام الجيش الإنجليزي كي يدخل فلسطين بسهولة في أعقاب الحرب الكونية الثانية، ليمهد لإقامة "وطن قومي لليهود" بعد أن تخلّت بريطانيا عن وعودها للعرب الذين ثاروا على المظالم التركية، فوأدت حلمهم في الاستقلال والتحرر القومي.

إنّ القارئ للفصل الأوّل يخرج بنتيجة مفادها أنّ الخروج على الأتراك كان مبررا، فهم المسؤولون بأعمالهم السيئة عن هدم دولة الخلافة، وهم المسؤولون عن دفع سكان ولايات دولة الخلافة للتحالف مع البريطانيين ضدهم، أو على الأقلّ عدم الدفاع عن ولاياتهم أمام الغزاة الجدد.

أمّا الباب الثاني في الرواية فقد تحدّث عن أوضاع البلاد في بداية عهد الانتداب البريطاني، هذا الانتداب الذي سهل الهجرة اليهودية إلى فلسطين، تمهيدا لإقامة دولة اسرائيل تنفيذا لوعد بلفور المشؤوم، ولم يكتف البريطانيون بذلك، بل إنهم سمحوا للعصابات الصهيونية بالتدرب على السلاح وحمله، في حين كانوا يعدمون الفلسطيني على رصاصة فارغة أو على سكين، كما أنّ البريطانيين سلموا كافة معسكراتهم وأسلحتهم للعصابات الصهيونية–بما فيها من أسلحة ثقيلة كالدبابات ومدافع الميدان وحتى الطئرات الحربية– ليلة انسحابهم من فلسطين، ويلاحظ القارئ لهذا الباب أنّ البريطانيين اعتمدوا في بسط سيطرتهم على بعض المتنفذين، وجُلّهم من الذين كانوا متعاونيين مع الأتراك لتنفيذ الاعتداءات

والمظالم التي وقعت على الشعب الفلسطيني، كما أنّ بعضهم كان من الاقطاعيين وأصحاب المصالح المالية.

كما أنّ الكاتب طرح بطريقة ذكية وبفنية عالية، دون مباشرة ودون خطابية، أنّ الكفاح الفلسطيني تركز في هذه المرحلة على مقاومة وطرد المستعمرين البريطانيين، مع أنّه كان هناك الوعي الكافي لمخاطر الهجرة اليهودية، وللأهداف الصهيونية في فلسطين والمنطقة، وقد رأينا في أكثر من مشهد كيف أنّ المقاومين الفلسطينيين لم يقتلوا أسراهم من اليهود الأصليين في هذه البلاد، والذين كانت علاقاتهم أخوية مع الفلسطينيين العرب المسلمين والمسيحيين، ففلسطين مهد الديانات السماوية، وبلد التعدديات الثقافية، وقد استشعر الفلسطينيون كما اليهود من أصل فلسطيني أنّ الشرور مصدرها اليهود المهاجرون من أوروبا، كما تطرق الكاتب إلى أنّ المستوطنيين اليهود قد استولوا على أراض فلسطينية شاسعة بالخداع، وبدعم وحماية من المستعمرين البريطانيين.

ويتداخل الباب الثاني "التراب" مع الباب الثالث "البشر" ففي هذه المرحلة بنى اليهود المستعمرات الاستيطانية، وأقاموا الكيبوتسات الزراعية، وبنوا مؤسسات الدولة حتى قبل قيامها ، وعندما ثبتت أقدامهم على الأرض، بدأوا اعتداءاتهم على القرى والمدن العربية المجاورة، فقتلوا من قتلوا، ودمّروا ما دمّروا، واستولوا على مساحات جديدة من الأراضي، ونشروا الرّعب في البلدات العربية في محاولة منهم لإجبار الفلسطينيين على ترك أرضهم لكي ينجوا بأرواحهم، وكل ذلك بدعم ومشاركة من قوات الانتداب، وبتحالف مع بعض العملاء ورجال الإقطاع.

ومن اللافت في أبواب الرواية الثلاثة أنّ أحد القواسم المشتركة فيها أنّ الفلسطينيين قاوموا الاحتلالات الثلاثة، الأتراك والبريطانيين، والمستوطنين

الصهاينة، وأنهم – أيّ الفلسطينيين – تعرضوا لشتى أنواع الاضطهاد والقمع من هذه الاحتلالات.

دور القيادات الروحية الأجنبية لبعض الأديرة:

على مدار "الكتابين" الثاني والثالث يُلاحظ كيف أنّ بعض "الرهبان" الأجانب خصوصا اليونانيين منهم، الذين كانوا يرأسون – ولا يزالون مفروضين– على أبناء الطائفة الأرثوذكسية، قد استولوا على بعض الأراضي مستغلين جهل وبساطة الأهالي، وقاموا بتسريبها للمهاجرين الجدد، والكاتب في روايته لا ينطلق من منطلقات طائفية، بل على العكس من ذلك، طرح مواقف نضالية للمسيحيين من أبناء الشعب الفلسطيني الذين شاركوا في العملية الكفاحية المناهضة للمستعمرين البريطانيين وللمستوطنين اليهود، وسقط بعضهم في معارك الكفاح، كما أبرز المواقف الإيجابية والمكافحة لبعض الرهبان العرب، وهو بهذا يؤكد على وحدة الشعب الفلسطيني بمختلف دياناته وطوائفه، ويطالب بطريقة غير مباشرة بتعريب الكنيسة. ويبدو أنّ دور رجال الدين الأوروبيين الذين يسيطرون على بعض الكنائس في بلادنا مستمر حتى أيّامنا هذه، فكلّنا عشنا وشاهدنا كيف أنّ بطريركا يونانيا وآخر أرمينيا قد سرّبا بعض العقارات المهمّة في مدينة القدس للمحتلين الإسرائيليين ، وهربوا من هذه البلاد التي احتضنتهم، وقد واجهوا معارضة شديدة من أتباع كنائسهم العرب، ومن رجال الدّين المسيحيين العرب الذين يناضلون من أجل استعادة هذه العقارات بالطرق القانونية.

المكان: تدور غالبية أحداث الرواية في قرية "الهادية" التي تخيّلها الكاتب، وإن كانت هذه الأحداث تمتد في طول فلسطين وعرضها، مع أنّ الكاتب ذكر أسماء مدن وقرى عديدة حقيقية، بعضها دمّره اليهود بعد إقامة دولة اسرائيل ، وبعضها لا يزال قائما، ويبدو أنّ "الهادية" هي مركز فلسطين، بل هي قلب فلسطين، وما

لجوء الكاتب إلى "تـــخَيـــلُ" الهادية إلّا محاولة هروب ذكية منه ، كي لا يحصر النضال الفلسطيني في مكان صغير بعينه، فكل قرية وكل مدينة في فلسطين هي الهادية، والعكس صحيح.

شخصيات الرواية:

يؤكد الكاتب في ملاحظاته في مقدمة الرّواية الملحمية أنّ "أسماء الشخصيات والعائلات غير حقيقية، وإذا ورد تشابه بينها وبين شخصيات حقيقية، فذلك بمحض الصدفة" ص٥ وهذا صحيح كما ورد في الرواية، مع أنّ بعض الشخصيات المناضلة، أو "القيادات" المناضلة أو المتعاونة مع المحتل، كانت أسماؤها حقيقية، وهي مدونة في كتب التاريخ، كما هي مخزونة في الذاكرة الشعبية.

الخيول البيضاء:

الخيول البيضاء هي أحد أبطال الرّواية، وقد شغلت مساحات واسعة من هذه الرواية، كما كان لها أكثر من دلالة، بحيث أنّها تضع القارئ أمام عدّة تساؤلات عن دورها، وعن دلالاتها. ولكل قارئ حقه في فهمها كيفما يشاء، حسب خلفيته الثقافية والاجتماعية وبيئته المحلية.

وفي تقديري أنّ لجوء الكاتب إلى الخيول الأصيلة، البيضاء الجميلة، ليكون لها دور كبير في روايته، إنّما جاء من باب تأكيده المتكرر على "الأصالة" فالخيول الأصيلة عدا عن جمالها الساحر، هي خيول وفيّة لفارسها، لا تتزاوج إلّا مع الأحصنة – جمع حصان– الأصيلة من بنات جنسها، فمثلما لا تنقاد لغريب، ولا تسمح له بامتطاء ظهرها، فإنها لا تسمح لحصان غريب عن جنسها أن يتزاوج معها حتى ولو كان أصيلا هو أيضا.

وقد شاهدنا كيف أنّ العربي لا يفرط بفرسه الأصيلة، وهو يعمل لها شهادة ميلاد متسلسلة من جهتي الأمّ والأب، ونادرا ما يقدم على بيعها مهما دفعته الحاجة إلى

ذلك، وكأنها فرد من أفراد الأسرة أو العائلة، وإذا ما اضطر إلى إهدائها إلى عزيز عليه فإن العرف والعادة أن يعيد المهدى إليه أوّل مهرة تنجبها إلى من أهداه إياها. وقد شاهدنا الخيول البيضاء " الريحانية " كيف شاركت في الأفراح والأتراح وفي الكفاح، حتى أنّها سقطت قتيلة في نفس المعركة التي سقط فيها فارسها شهيدا.

فهل أراد أديبنا أن يسحب ذلك على البشر؟

وأنا أقول ..... ربما .وأؤكد على هذه الـــ "ربما" حيث شاهدنا ولا نزال نشاهد كيف أنّ بعض الأبناء توارثوا الكفاح والجهاد والأصالة عن آبائهم وأجدادهم، والعكس صحيح أيضا.

وتشبيه الإنسان الجيّد والخيّر بالفرس الأصيلة ليس جديدا في هذه الرواية، بل هو أصيل في ثقافتنا الموروثة سواء منها الرسمي أو الشعبي.

فنحن نشبه المرأة المحصّنة الوفيّة بالفرس الأصيلة، ونشبه الرجل الرجل بالحصان الأصيل، وكثيرا ما نسمع مخاطبة النساء بـــ :"أمّك أصيلة خلّفت أصيلة" ومخاطبة الرجال بـــ"بيّك أصيل خلّف أصيل"

وفي تقديري أنّ بطولة الخيول الأصايل في الرواية الملحمية، واختيار الكاتب اسم روايته – زمن الخيول البيضاء – هي نقطة ذكية تسجل لصالح الكاتب.

التراث الشعبي:

واضح أنّ أديبنا لديه مخزون ثقافي شعبي كبير، فقد استعمل المثل الشعبي، واستعمل الأغنية الشعبية، والزغرودة الشعبية والعادات الشعبية في أكثر من موضع، دون إقحام ، بل جاءت في مكانها الصحيح مما أسبغ على الرواية صفة الملحمية متعددة الجوانب والأهداف.

لغة الرواية:

لو لم نكن نعرف مسبقا أنّ أديبنا ابراهيم نصر الله شاعر مبدع، لما احتجنا الى كثير من الذكاء كي نعرف ذلك من خلال لغة الرواية الشاعرية، كما أنّ بلاغة اللغة وما ورد فيها من صور وتشبيهات أعطتها جمالية مدهشة، فلغة الرواية سلسلة منسابة كمياه جدول عذب، تشد القارئ إليها، تدمجه فيها، دون إثقال عليه. وعنصر التشويق جارف كسيل عرمرم، فمع طول الرواية التي تزيد على الخمسمائة صفحة، إلّا أنّ جماليات اللغة وسلاسة الأسلوب تأسر القارئ وتجبره على قراءتها مرة واحدة، وإذا ما تركها في مرحلة معينة لسبب ما .... فإنها تلاحقه وتشدّه إليها من جديد.

وقد لاحظت أنّ الكاتب كرّر عبارتين أكثر من مرّة، ولم أعلم إن كان ذلك مقصودا من الكاتب، أم كانت تأتي معه عفو الخاطر، وهما عندما كان يقف صاحب الأصيلة أمامها "ينزل على ركبتيه، يرفع قائمتها اليمنى ويُقبّل حافرها، ثم يعيدها ويرفع اليسرى ويُقبّلها ويعيدها مكانها"ومع تعلق العربي بفرسه الأصيلة إلّا أنّني لم أسمع، ولم أقرأ، أن عربيّا فعل ذلك إلّا في هذه الرواية، مع أنّنني شاهدت وسمعت وقرأت عن تقبيل الخيول الأصايل على جبينها.

أمّا العبارة الثانية المتكررة فهي وصف الجوّ الماطر بـــ : تلبدت الغيوم وقذفت ما في جوفها من ماء دفعة واحدة.

الأسلوب مرّة أخرى:

يلاحظ أنّ الكاتب قد قسّم ملحمته الروائية إلى ثلاثة كتب، وقسّم كلّ كتاب إلى قصص أو ما يشبه القصص، كلّ قصّة لها عنوان منفصل، وكلّ قصّة مرتبطة مع الأخرى بخيط حريري، إنّها مشاهد تصويرية مدهشة، فالكاتب كان يرسم لوحات متداخلة ومتشابكة، فقدّم لنا مشهدا روائيا أجبرنا على الانخراط فيه ومعايشته من جديد، والرواية أشبه ما تكون بفلم سينمائي.

وفي تقديري أنّ تقسيم الملحمة الروائية بهذه الطريقة، جاء لخدمة العمل وإدخال كافة الروايات والحكايات الشفهية والمقروءة التي عاشها أبناء الشعب الفلسطيني في تلك المرحلة الممتدة من الربع الأخير للقرن التاسع عشر، إلى نكبة الشعب الفلسطيني في العام ١٩٤٨والتى سمعها الكاتب من رواتها أو قرأها.

وفي النهاية: إن هذه الرواية الملحميّة علامة بارزة في تاريخ الأدب الفلسطيني والعربي، وترجمتها إلى لغات أخرى، يغني عن كثير من التنيظرات السياسية والكتب التاريخية التي أرّخت للنكبة الفلسطينية. وهذه الرؤية الانطباعية لهذه الرواية لا تغني بأيّ شكل من الأشكال عن الدراسات النقدية المنهجية التي ستثريها.